## المستعين بالله . . . الكابتن هاردى

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب ، وأحسسنا سحائب الهم والفزع تنعقد فى سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق منا أن يهجر القاهرة إلى بعض الأماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السباقين إلى الهجرة .

وقضيت فى الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات فى الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه . . . وكلما علمت أن غارة روّعت سكان القاهرة أو الإسكندرية وكان لها آثار وخيمة ، حمدت الله الذى وفقنى إلى المبادرة بسكنى الضيعة لأباعد بينى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة .

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت فى قلبى دبيب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ومما يحيط بى من بيئة جديدة علىّ فقدت فيها كثيراً من ألوان الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بها ، أغالب الوحدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاصيص ، إذ أقبل علىّ الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكببت على الصحف ألتهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة تزداد سوءاً على سوء ، فانقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد يحاول أن يظهر براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمعت عينى ، وهمهمت : أممكن هذا ؟

وفضضت الغلاف متعجلا ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على

الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لى أن ظنى لم يخب ، ورحت أقرأ :

« أيهذا الصديق العزيز

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله جلت قدرته ، وأنهى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر . وقد شهقت إلى رؤيتك نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات ، وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت فى معزلك ، أو بالحرى فى مهربك . وإذ طال تنظرى لك على غير طائل استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب ، وإنى مخبرك بمقامى فى الحسين ، وامتداد إقامتى فترة . فإذا فككت عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى قاهرة المعز ، فزرنى بدارى « مغنى الرشيد » نتناول أقداحاً من الشاى الذكى ، ونتذاكر أحاديث الماضى الحبيب . ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان . فلا تهولنك الأخطار ، وأقبل شجاعاً غير هائب ، والله راعيك .

أخوك المستعين بالله ، هاردى — كابتن بالجيش »

وطافت برأسى شتى الذكريات . . . المستعين بالله . . . المستر هاردى . . . بل الكابتن هاردى . . . صديقى المستشرق الإنجليزى المسلم ، الذى عرفته متحمساً للشرق وللإسلام أكثر منا نحن الشرقيين المسلمين . . .

وتوضحت لى على الفور صوره ذلك الصديق الكريم : قامة مبسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ، وعينان زرقاوان يروعان بصفائهما الشفّاف ، وصوت هادئ خافت يلقى بكلماته فى تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم فى رأسه ، ولهجة عربية تبين فيها فصاحة اللفظ ولكنها لا تخلو من عجمة محبّبة .

وتوالت الذكريات والصور . . . حىّ الحسين . . . جولاتنا فى أسواقه نبتاع الطُّرف والتحف ، وجلساتنا فى نواديه نحتسى الشاى الأخضر . . . وكان من عادة صديقى أن يتسمع فى هذه النوادى إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدها فى دفتره الذى بليت أوراقه من طول الطىّ والنشر ، وتشابكت سطوره من تكرار الزيادة والتعليق . . . وداره ، ذلك المبنى الصغير الذى أطلق عليه اسم « الرشيد » تبهرك منه السذاجة والطابع

الشرق الجميل . . . وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة كلما قدم مصر فى العام بعد الأعوام . وأقرب عهدى به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عنى أخباره حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل .

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهاباً والرسالة فى يمينى . وقد هاجت فى نفسى عاطفة الذكرى لأيام رقاق قضيتها ناعم البال خلىّ الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عينى على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان » . وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدى ، حتى أخذت عينى عنوانات على جبين الصحف تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة فى الأموال والأرواح . فقذفت بهذه الصحف مغيظاً وهمهمت : شد ما يغلون فى رواية الأخبار !

وصحت منادياً الخادم فقلت له على الفور : احزم حقائبى . . . سنرحل مبكرين إلى القاهرة .

فقال لى مأخوذاً : والغارات يا سيدى ؟

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ الأعمار بيد الله .

وفى أصيل غدى ، كنت أغادر دارى فى القاهرة آخذاً طريقى إلى حىّ الحسين . . . ووقفت عن كثب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت : الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفىّ : « مَعْنَى الرشيد » . فأخذت بالمطرقة أدق الباب كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى . . . وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم الكابتن الخاص ، فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفاً ، ثم شدّ حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا ، فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطباً مظلماً يظلله عريش كوم عتيق . وجزت بتلك النافورة الساذجة وماؤها يقرقر كأنه يحيى القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ظهر شبح صديقى المستشرق ، وقد بسط لى ذراعيه فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقى بيدى فسايرته إلى البهو ، وهو يخب فى عباءته الحريرية الهفهافة وقبائه الزاهى ، وذلك الخف الأحمر يخفق به على الأرض خفقات هينة كأنها همس أطياف . . . واسترعى انتباهى فى

نظراتى إلى الصديق هزاله وامتقاعه ، ومشيه متوكئاً على عصا يظلع بعض الظلع . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقارَبَيْن ، وصاح صديقى قائلا وقد ضرب كتفى بيده : ما قولك فى أنى عثرت فى مجريط على مخطوطة ديوان ابن زريق وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟

فقلت دهشاً : ما أندرها تحفة ! ألا تمتعنى بالنظر إليها ؟

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم : تركتها فى دارى بلندن . . . ولا أدرى ما هو حظها من كوارث الغارات هنالك ؟

فهززت رأسى أسفاً ، ثم قلت له : أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية فى أسبانيا من عهود الحضارة الإسلامية فى الأندلس ؟

وكنت أعلم أن لصديقى باعاً واسعاً فى الرسم والتصوير ، فقال لى وهو على حاله منشرح الخاطر : لدىّ طرائف ولطائف استطعت أن أنقلها رسماً وتصويراً ، وهى الآن رهينة أقدار الغارات فى خزانة كتبى بلندن .

ثم صمت لَحْيْظَةً ، وقال : حينما جُنِّدت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع أن أحمل معى شيئاً من كتب أو مذكرات أو صور . . جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار !

وسمعته يصيح بخادمه « مسرور » : علينا بالشاى .

فقلت له : إنى لأعجب لك كيف تتكلم عن الحرب والضرب وما أراك إلا كسابق عهدك فى مَغْنَى الرشيد تتقلب فى أحلام الشرق الهانئة . . . وها هو ذا «مسرور» ما زال قائماً بخدمتك !

فابتسم ابتسامة سانحة وقال : أنا فى إجازة مرضية ، أقضى فترة النقه بعد علاجى من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع فى ساقه ، وواصل حديثه يقول : لقد أرادونى على أن أنزل الجيزة أو حلوان ، فقلت لهم ذعونى أستجم فى حىّ الحسين أنشق عبير الراحة فى مغنى الرشيد ، وأملأ سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان يهز نفسى هزًّا ويرنح أعطافى طربا .

ثم ابتسم ابتسامة وضيئة رحيبة ، وقال : ما أجمل أن يقضى الإنسان عمره فى ذلك الجو الساحر ، جو ألف ليلة وليلة . . . إنى لأشعر بأنى أعيش حقًّا ! وعلا بصدره يملأ رئتيه بالهواء ، فتناولت مسبحة كانت منا عن كثب ،

وطفقت أعبث بحباتها وأنا أحدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات : ولكنى أرى أن شيئاً ينقصك . . .

— أى شىء ؟

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالمسبحة أعبث : ينقصك شهر زاد !

ورفعت عينى إليه ، فألفيته يصعد نظره فى عرض الحجرة صامتاً ، وهو يتكلف ابتسامة شاحبة ثم جمجم : شهر زاد ؟ ويحك من مهذار ! . . . أنّى لى بشهرزاد هذه ؟

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول وقد تزايلت ابتسامته فى صوت متخافت كأنه آت من مكان سحيق : شهر زاد ؟ . . . إنها بعيدة . . . بعيدة كل البعد !

وأردت أن أتبين ما يعنيه وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرنا « مسرور » قادماً بصينية الشاى يتخطر بجسمه المتكتل الضخم وعمامته الطويلة التى تكاد تلامس السقف ، فوضع الشاى بين أيدينا وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقال . . . وصبّ صديقى الكابتن الشاى فى الأقداح ، وأخذنا نحتسى على مهل ، ونحن فى صمت كأننا فى شغل بالشراب ! . . . وجعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ماحوت ، فوقعت عينى على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوىّ . . . ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود رقيق النسج يكاد يكشف عن ملامح وسمات . فنهضت إلى الرسم أتوسمه مليًّا ، وقد خلبتنى هاتان العينان بحورها الساحر وأهدابهما الوطاف ... ورجعت إلى مجلسى ، فاحتسيت جرعة من قدح الشاى وأنا أقول : صورة رائعة ، لقد تجلت براعتك فى التصوير ياصديقى . . . !

— أترى ذلك ؟

— أمن وحى الخيال هى أم من عالم الواقع ؟

فصمت متشاغلا بصب الشاى ، ثم قال مهمهما : من وحى الخيال .

— ألم تستلهم بعض السمات من نموذج حىّ ؟

— قلت لك من وحى الخيال .

وشرد ذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على قدحى أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت . فقلت أصل ما انقطع من الكلام .

ظننت أن شهر زاد تعوزك فى « مغنى الرشيد » فإذا هى تحتل منه أعز مكان !

فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة فى يده : لا وقت عندى لشهر زاد يا صديقى المهذار !

— كيف تنفق يومك ؟

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ، ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوّى شعره الأملس ويقول : إنى أستجم ، لا أبرح الدار إلا فى الندرة .

— ألا تملّ هذا النمط من الحياة ؟

— إذا شعرت بحاجة إلى التسلية فعندى « مسرور » يفكهنى بنوادره اللطاف . . وقد أخرج ليلاً فى ضوء القمر أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار مقبلاً على المطالعة .

— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحنف ... إنه زادى كله فى هذه الأيام .

— مالك ولهذا الشاعر ؟ إن ديوانه ينفح وجداً وصبابة !

فسرح صديقى بصره لحظة أمامه ، وقال : إنى لأقرؤه لسهولته وعذوبة شاعريته ، لا لوجده وصبابته ، فما لى بالحب شأن .

— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟

فسنحت على ثغره ابتسامة وهمهم : تقصد الشيخ جاد الرب أستاذى ... إنه بخير

— عجيب أن أسألك أنت ضيف مصر عن رجل تجمع بينى وبينه مدينة واحدة . . . أتصدق أنى لم أره منذ زرته معك آخر مرة كنت أنت فيها بمصر ! أعلى حاله هو ، لم يجدّ فى شأنه جديد ؟

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلاً فى عمله ، مطيلاً لوقته ، ثم قال منحرف البصر عنى : إنه كما تعهد ، لم يحدث له شئ ذو بال ، إلا ما كان من أمر تافه . . .

— ماذا ؟

— زواجه . . .

— عجباً . . . أيتزوج وهو شيخ فإنه نصف بصير نصف سميع نصف حىّ ؟

— هذا ما وقع .

— من تكون تلك التى رماها به القدر ؟

— نور العين . . . ربيبته !

— الطفلة الغريرة التى كنا نضيق ذرعاً بمعابثاتها ؟ . . .

— أحسبتها تظل طفلة أبد الدهر ؟ لقد غدت فتاة يافعة ، إنها تستقبل عامها السابع عشر . . .

— ألم يذرّف الشيخ على السبعين ؟

— لا بأس . . . لقد كفلها طفلة ، وألف أن تتعهده بالخدمة ، ولم يكن يقيم فى البيت سواهما ، فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بدًّا من أن يبنى بها ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ويبرئ عرضه . . .

واسترخى صديقى فى مجلسه ، وأشعل غليونه ، وراح ينفث الدخان وئيداً مسبل الجفنين .

وعادت الذكريات تطوف برأسى ، ولاحت لى مشاهد من زياراتى قديماً لبيت الشيخ فى صحبة الصديق المستشرق ، إذ كان يقرأ عليه بعض الكتب ، ويدرس معه بعض النصوص .

كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذى لا يتزايل عنه مهما جد من أحداث ومهما تعاقب من أجواء . . . ولا نكاد نطمئن فى مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين ، صائحاً بصوته المختنق : القهوة يا نور . . .

وما هى إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية وموقد يتوهج فيه الجمر وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كثب من الشيخ وتبدأ فى صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعد مرة . . . وهى صبية سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس بين قارئ ومستمع . فإذا آنست من أحدنا غرة رمته بحبات اللب أو الفول السودانى وهى تخفى بين طيات خمارها الأسود ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح !

وبينا أنا فى فيض من هذه الذكريات إذ تقابلت نظراتى ونظرات صديقى المستشرق وهو يتابع تدخينه ، فسمعته يقول همساً كمن يحلم : ما كان أكثر معاكستها لنا !

وأمسكت عن الكلام فترة أحدق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء صمتنا فى

رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب ... ثم قلت : والآن ، كيف هى ؟

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف .

وشغل صديقى بوضع الطبّاق فى غليونه وإشعاله . وفى هذه اللحظة قدم « مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية الشاى وهو يقول لسيده : أذكرك بالموعد . . . لقد أزف . . .

فقلت لصديقى على الثو : أعلى موعد أنت ؟

— لا عليك . . . إن هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا المعجم الأحمر لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .

فنهضت قائلا له : بل تذهب لطيتك ، فإذا أذنت رافقتك على مألوف العادة . . . إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فإنى لم ألقه منذ زمن مديد . . .

فقال وقد لمّ شعثه ناهضاً : يسعدنى أن تكون معى !

وتهيأنا لمبارحة القاعة . وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة . . . ومضينا إلى الباب يحب صديقى فى قبائه ، ويكوّر على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة . . . وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع الحياة الليلية فى ذلك العهد ، ونحن صامتان نستبين الطريق فى محاذرة واحتراس . . . وبعد لأى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ صديقى يقرع الباب هنيهة ، فانفرج مصراعه كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز تطارد ظلامه فلول من الضوء يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان إذ فاجأتنا سعلة هزيلة متصلة الحلقات صاحبت خطانا تؤنسنا حتى باب الحجرة وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح وتهب منه رائحة التبغ . وصفق صديقى الكابتن تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتا متداعى النبرات يقول : أهلاً وسهلاً . . .

فدخلنا القاعة ، فإذا هى هى فى غبرتها وضيقها وحلوكتها . . . كومات من الكتب تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجهاً مسروقاً ضئيلاً أكثره لحية شعثاء . . . ودنوت من الشيخ أذكره بنفسى ، فتناول يدى وأبقاها بين يديه وهو يحملق فىّ بعين كليلة محمرة تجردت من الأهداب ، وقال فى صوت لم يصف بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة : أهلا بصديقنا الهارب . . . أكذلك تنسانا دهرا ؟

فقلت وأنا أشد على يده : حقًّا غبت عنك طويلا ، ولكن عذرى فى ذلك ما أحاط بى من مشاغل ومهام . .

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة أبى العلاء المعرى ؟

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم فى وقت رُوِّعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟

فهمهم صديقى الكابتن وقد اقتعد حشيته القديمة فى مكانه المألوف : إن أبا العلاء ينتظر زوال الحرب ليخرج من مخبئه ، وينفض التراب عن لحيته !

فقال الشيخ متضاحكاً : أخشى أن يستبد النوم بأبى العلاء فى محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد . . . طالما رغبت إلى صديقنا أن يذكى همته لإنجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتمادى فى تكاسله .

فقلت وقد اقتعدت حشيتى المعهودة بجوار كومة من الكتب : سأستمع لنصحك . . . ادع الله لى أن أوفق !

وصفق الشيخ تصفيقته المتراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب : القهوة يا نور . . .

وجذب من جانب حشيته كتاباً أبلاه الطى والنشر ، ثم قال لصديقى الكابتن : لنبدأ من حيث وقفنا أمس .

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف وغزله ، مستشهداً بمقطعات رقاق يحفظها له ، فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ، ودقة بحثه . وبينا نحن فى نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتنى على الفور عينان دعجاوان تحتهما لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمنى ، وألفيتنى أختلس النظر إلى الكابتن ، فوجدته مطأطىء الرأس ، يعبث بأطراف عباءته . . .

وقصدت «نور العين» مجلسها عن كثب من الشيخ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بإبريقها وأقداحها ومجمرتها يتطاير منها عبق البخور . ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح ، والشيخ ماض فى حديث العباس ابن الأحنف ينشد من رقائق غزلياته وهو يتابع أنفاسه فى جهد يستدر الإشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ، إذ كنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونهما

الخمار الهفهاف ، فيخيل إلىّ أنهما عينان معلقتان فى الفضاء لا يتصل بهما وجه ولا جسد . . . نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالأحلام العذاب . . . ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكابتن ، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً فى جلسته يعتمد ذقنه بيده فى إطراق وكأنه فى غيبوبة روحية يهيم فى آفاق مترامية ! . . .

وترادفت اللحظات ، ونحن فى هذه الدنيا الغريبة : صديقى مسترسل فى حلمه السحرى يكاد لا يفيق ، وأنا فى جلستى أدير النظر حولى فى هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان فى الفضاء كأنهما نجمان يحاولان بلألأهما أن يفضيا إلينا فى جنح الليل بكنه الحياة . وهذا الصوت الذى يردده الشيخ يبدو كأنه همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغتة أفقت من غفوتى على ضربة أوقعها الشيخ على كتاب أمامه ، وهو يقول : أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيًّا صفيًّا للحب ؟ .

ما أروع قوله :

سلبتنى من السرور ثياباً ... وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل باباً ... فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بشئ سوى الصـ ... ـدّ فما ذقت كالصدود عذابا

فقلت : لم يكن العباس إلا قلباً يخفق صبابة ، وروحاً تشفّ نقاء !

فسمعت صديقى الكابتن يهمهم ، وهو على حاله مطرق : ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ فى سبيل حبه وقلبه !

واستأنف الشيخ يروى من شعر العباس فى نغمة متساوقة ، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين فى الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ، وإذا بالكابتن يعلو بهامته يشيّع الشبح الغارب بنظرات خاطفة . . . وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ولم نسمع من صوت ، كأنما هى طيف هبط علينا حيناً ، ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور !

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقى يستأذن شيخه ، ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ، وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة من الدروب الملتوية

والحارات المستغلقة السابحة فى عباب الظلمات . وكنا نلتمس الطريق كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق فى أخيلته ، مشغول بعالمه . . . وتمادينا فى الصمت ، وكان الهواء حبيساً كثيفاً زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق فى الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدى ويلاطفها ، كأنه يستعيض بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح لنا من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها الممشوقة إلى العلاء ، كأنها تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء !.. ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو ومقلتى كلما لا ... ح بريق تلفتت للقاكا
كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا

وجعل الصوت يرجّع فى نشيده ، ونحن إليه بقلبينا نهفو مستمتعين بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وئيداً يطويه السكون والظلام . . .

وخيل إلىّ أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألفيت نفسى وصديقى نتحرك عائدين إلى المتاهة نضرب فى الحارات والدروب . . . وعاد الصمت يلقى علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباساً وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديقى تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين .

ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشية نواجه معاً صورة العينين ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين ؛ وهمست قائلا : فى هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور !

فقال لى صديقى الكابتن فى صوت هادئ النبرات : إنهما عينان لطيف بعيد . . . بعيد غاية البعد . . . ليس إلى الوصول إليه من سبيل !

وهنا أسبل جفنيه وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى .

وكنت أزور الصديق المستشرق فى الفينة بعد الفينة ما واتتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى ما يطلب من تواصل الزيارات ، إذ كان يحس أنه فى حاجة إلىّ . فى حاجة إلى من يأتنس بوجوده فى دنياه التى

اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من سر دفين . . . ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفّس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال على أن يضغط يدى ويلاطفها فى حنو ورفق .

ولم يجدّ فى برنامج حياتنا جديد : جلساتنا الهادئة فى « مَغْنى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف ، وزوراتنا لذلك المعجم الأحمر نستمع إلى ثرثرته الفياضة فى شعر العباس بن الأحنف ، حيث تقبل علينا « نور العين » بخفيف ثوبها حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح والمجمرة الطيبة الشذا .

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ؛ وبينما نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق البعيد إذ بنجم يهوى محترقاً وقد سطع بريقه سطوعاً يخطف البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعته غياهب الظلمات . . . فقال صديقى وهو فى وقفته متطلع النظرات : ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقى بنفسه فى أحضان الليل البهيم ! . . : إنى لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره صمة الأم الرءوم ! . . . إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون فى مثل هذا النجم إن انفجاراً حدث فيه أو إن اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقاً وأدركه الفناء . . . ولكن لم حدث الانفجار ؟ لم وقع الاختلال ؟ لا يدرى أحد ، وما كان النجم ليدرى ذلك المصير . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه أعقبه اشتعال ففناء . . . ليس فى الوجود شىء بقادر على أن يحمى ذلك النجم مما أصابه . . . ثمة يد خفية تدير الكائنات لاتسمو إلى إدراكها العقول والأفهام ... ألسنا مسيَّرين فى هذا الكون لا مخيَّرين ؟.. علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد !

ثم أخذ بيدى ، فسرنا الهُوَيْنى ، وتابع صديقى قوله : أليست أعمر مرحلة فى حياة هذا النجم وأعظمها هى تلك اللحظات التى احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن فى قلبه من حرارة وضياء ؟ إن ملايين السنين التى قضاها من حياته فى مسبح الفلك لتعد تافهة زريّة إذا قيست بهذه اللحظات التى عاشها وهو يهوى محترقاً فى الفضاء ! . . . ما أجلها متعة وما أروعها حياة ! . . . شبيه بهذا

النجم إنسانٌ يظل عمره جامد الحس بارده ، خابى الوجدان راكده ، وما هو إلا أن تنبعث فى أعماقه شرارة الانفجار فيلتهب باهر الضوء خاطف البريق . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ويكمن فيها سر الحياة الحقة لا يعدلها شىء فى الوجود !

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ، كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام ... ولاحظت على صديقى أنه لايزور الشيخ إلا لماما ، وأن شحوبه يتزايد ، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذى يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطرماً فلا يجد له من متنفّس ... وكان صديقى إذا اشتدت به كربته خرج إلى تطواف بعيد الشقة تكلّ منه الأقدام ، حتى لقد نتغلغل فى رحاب الصحراء ونكاد نتيه فى شعابها الموحشة . وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر ، فأرى الصديق يخفف من خطاه ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينيه قليلا إلى حيث نوافذ المنزل يَنْضَحُ منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه وقد بلغ به الجهد كل مبلغ فيلقى بجسده المتخاذل على الفراش !

ولما هالنى اشتداد الأمر به ، اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكناً فى حىّ آخر ينقله إلى بيئة جديدة وأسلوب من العيش جديد ، فقال لى : أتريد أن تسلبنى ما أنعم به مما بقى لى من أيام إجازتى فى هذا الفردوس ؟

فصحت به : أهذا تسميه فردوساً ؟ إنه الجحيم المستعرة . . . إنك تذوب وتحترق على عجل !

فابتسم لى وهو يشد على يدى ثم قال : لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار .

وأطرق برأسه وقتاً ثم قال : إنى أذوب حقّا وأحترق ، ولكن الإنسان فى بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص . . .

وقصدت دار صديقى يوماً ، إذ كنت معه على موعد لقاء لزيارة شيخه المعجم الأحمر ، فقال لى : أنا اليوم مجهود ، فلتبق معى فى الدار لا نبرحها ...

واتخذ كلانا مقعده على الحشايا ، ونحن نتناول الشاى وندخن . وكان أول ما استرعى نظرى أنى وجدت مكان الصورة خالياً منها ، فالتفت إليه على الفور أقول : أين شهرزادك ؟

فابتسم ابتسامة أسى كظيم ، وغمغم : لقد اختفت ... استردها عالم الروح .. ألم أقل لك من قبل إنها طيف من الأطياف ؟!

فلت عليه قائلا : زدنى إيضاحاً ... ما هذه الأحاجى ؟

فرنا إلىّ بعينيه الصافية الزرقة ، وظل وقتاً لا يتكلم ، ثم قال وقد ازورّ ببصره عنى : ألك فى أن تقرأ فصلا من رسائل إخوان الصفا ؟ انتهت إلىّ مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...

فصعّدت فيه بصرى فترة ، وقلت : وأين ابن الأحنف ؟

فرمى بنظره فى عرض الحجرة ، وقال : طويته ... فرغت منه !

— وهل يُطوَى حديث الحب والغزل ؟

فأجابنى وهو على حاله مشرّد النظرات : متى كان فى مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل تحسن صنعا ...

وألفيته يستخرج مخطوطة الرسائل ، وأقبل يقرأ جَهْوَرىّ الصوت ، باذلاً أكبر الجهد فى التفهّم والتمعن والاستخلاص . وألفيتنى أشاركه فى الدرس وأساجله الرأى . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقى يزداد احتقانا وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال ؛ وإذا برأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه مطبق الجفنين ...

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقى تنتقل به الحال من سيّئ إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها فى عشية أو غداة ، وعكف على رسائل إخوان الصفا يتعمقها أدق تعمق ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد ...

ولاحظت أنه كلما طاف بذهنى شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين والخمار الهفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقى الحديث فيها ، أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدى — يأخذ علىّ السبيل ، ويشغلنى بأحاديث مختلفات تطوّح بنا بعيداً عن ذلك الحديث ...

وطالت فترات صمته وإطراقه ، وتبين فى جسمه الضنى والنحول ، حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح ... فأدركتنى رحمة لصديقى وإشفاق عليه مما حلّ به ، فأمسكت بيديه وقلت له فى عزم وتأكيد : لا أرضى لك هذه الحياة ... لقد صح عزمى على خطة فى شأنك ...

سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أو أبَيْت . . . نستطيع أن نسافر إلى الضيعة أو نقيم أياما فى إحدى الضواحى الطيبة الهواء . . .

فلم يعقب على كلامى بشئ ، ولم يزد على أن ربّت يدى ملاطفاً ، وهو يبعث إلىّ بابتسامة مستغلقة زادتنى حيرة إلى حيرة . . .

وفى اليوم الموعود ، وفدت على « مغْنى الرشيد » وقد انتويت أن أنفذ عزمى على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب الدهليز ، حتى أقبل علىّ « مسرور » يزحم الممرّ بجسمه المتكتّل وعمامته الطويلة التى تناطح السقف ، وقال لى مبادراً : لك عندى رسالة من سيدى الكابتن . . .

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلىّ ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقى الكريم

كان من مُقْتَرَحِك علىّ أن أستبدل بمثانتى مثابة أخرى ، فلم ينفتح لى من الرأى إلا أن أختار حومة القتال ، فربما أقدرنى الله على أن أقوم هنالك بعمل ذى جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك . . . هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوماً ؟

محبك المخلص المستعين بالله »

وبارحت الدار والرسالة فى يدى وأنا فى موجة من الذهول والأسى ، دون أن أبادل « مسرورا » أى لفظ . .

ومضى شهر لم أعلم من نبأ صديقى شيئاً كثر أو قلّ . . .

وبينما أنا يوماً فى مكتبى منصرف إلى بعض عملى إذ دق التليفون ، فإذا المتكلم على ما بدا لى جندىّ هندىّ يبلغنى رسالة مقتضبة يدعونى فيها إلى زيارة مستشفى الجيش البريطانى بالجيزة . . . وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبى خفقة وَلَهٍ وجزع ، ونهضت من فورى عجلا إلى ذلك المستشفى ، فلما بلغته ، واتخذت إجراءات الإذن بالدخول ، ذهب بى الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث بيضاء الطلاء ، تظل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقا لا يستقر بى المقام ، أذرع الحجرة تارة وأقف أمام النافذة تارة أخرى . . . وبعد وقت دخل علىّ ممرض طلق المحيا أبيض الحلة يلتمع نظافة

وأناقة ، وقال : صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد اجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر .

وخطونا إلى حجرة المريض ، فإذا هى حجرة مسدلة الأستار يشيع فيها الدفء ، وفى ركن منها سرير تبينت بين أغطيته ومفارشه وجهاً بالغ الشحوب شديد الامتقاع ... وجها لم يكن بالغريب علىّ ... وتقدمت مضطرب الخطو ، فقابلتنى العينان الزرقاوان وقد زيدتا صفاء حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخايلت على ثغر الصديق ابتسامة رفيقة ، واضطربت شفتاه بصوت مهزول راعش :

— لقد سمح الدهر أن نلتقى !

ولا أدرى على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولكنى أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ بيدى يشد عليها ، فشعرت بكفه مقرورة غير متماسكة .

ووقفت صامتاً أحاول أن أكسب وجهى مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقى ما راعنى من حاله .

وبعد قليل ترك يدى ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ، فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها لحظات ... ورأيته يسبل جفنيه ، وتتراخى يده ، فانحدرت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر إليها فإذا هى عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود هفهاف ... !

وخيل إلىّ أن هاتين العينين الحالمتين ، ، وهما ترنوان إلىّ ، كانتا نديتين تتحير فيهما قطرات من دموع !

محمود تيمور